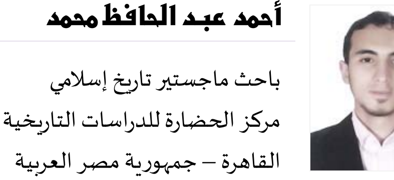
ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

أورانك زيب
بقيَّة الخلفاءِ الراشدين

أحمد عبد الحافظ محمد



باحث ماجستير تاريخ إسلامي
مركز الحضارة للدراسات التاريخية
القاهرة – جمهورية مصر العربية

مُلَخَّصْ

تمثل الهند إحدى بقاع الأرض التي أنارت بنور الإسلام واستظلت بظله مئات السنين، لتقف شاهدة على عظمة الإسلام في بناء الإنسان والحضارة، ومن المسلَّم به أن تاريخ الإسلام في الهند بناه جيلٌ من الأفراد المبدعين، غيَّروا مسار تاريخ بلادهم وصنعوا للإسلام حضارة سادت العالم قرونًا، أمثال: محمود الغزنوي، وشهاب الدين الغوري، وقطبُ الدين أيبك، وعلاء الدين الخَلْجِي، وفيروز شاه الطغلقي، ثم تأتي الدولة المغولية، المملكة الأخيرة للمسلمين في الهند، والتي وصلت بالحكم الإسلامي إلى أرقى صوره وأقوى نفوذ له؛ وذلك لما حفلت به من سلاطينَ عظامٍ، صنعوا أمجاد حضارة ما زال الهند تعتز بها للآن، كأثمن شيءٍ تعتز به أمةٌ من الأمم. وهذا المقال يعرض سيرة مختصرة لواحد من رجالاتها العظام، الإمبراطور المغولي المسلم أبو المظفر محيي الدين محمد أورنك زيب عالمكير بن شاهجهان (١٠٢٨هـ - ١٦١٩م / ١١١٨هـ - ١٧٠٧م)، أحد عظماء الإسلام الذين جهِل المسلمون صفحاتهم الخالدة في التاريخ، حكم خمسين عامًا لم تَخْلُ من المتاعب والحروب، كما لم تَخْلُ من الحضارة والبناء. يتناول المقال ما يتعلق بنسبه وولادته ونشأته العلمية المتدينة، ثم صراعه على السلطة بين إخوته والظروف التي حكمت عليه بذلك، حتى ظفر بها دونهم، ليكون مثالاً للحاكم المسلم، الذي يعتز المسلمون به وبسيرته الصالحة، حيث سار على منهاج النبوة وسنة الخلفاء الراشدين المهديين.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث: ٢٢ ديسمبر ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ٧ مارس ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

تاريخ الهند، حكام الهند، ملوك المغول، الخلفاء الراشدين، مسلمون الهند

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أحمد عبد الحافظ محمد. "أورانك زيب.. بقيَّة الخلفاء الراشدين".- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والثلاثون؛ مارس ٢٠١٦. ص١٤٦ - ١٥١.

مُقَدِّمَةُ

حكم المسلمون بلاد الهند ما يقارب الألف عام، كتبوا فيها صفحات خالدة في تاريخ البشرية كلها، ومع ذلك ظل هذا التاريخ مجهولاً لدى الكثير من المسلمين، مع أن هذا التاريخ الإسلامي الزاهر في الهند هو جزء من تاريخنا، وصفحة مشرقة من صفحات أمجادنا الخالدة. وفي سبيل بيان بعض أوجه هذا التاريخ، كانت هذا المقال حول علم من أعلامها الخالدين، وبطل مغوار من أبطالها المجاهدين، الإمبراطور المغولي المسلم أبو المظفر محيي الدين محمد أورنك زيب عالمكير بن شاهجهان (١٠٢٨هـ - ١٦١٩م / ١١١٨هـ - ١٧٠٧م). ومما دفعنا لكتابة هذا المقال إعلام المسلمين بسيرة حاكم سار على منهج السلف الصالح في فهمه وحكمه، بلغت الدولة الإسلامية في عهده الذروة التي لم تبلغها قبله أو بعده، حيث لم يبق إقليم من أقاليم الهند إلا خضع تحت سيطرته، بل اتسع سلطانه ليشمل الهند وآسام وأراكان في بورما، وكذلك أفغانستان، وكانت تلك هي الذروة التي وصل إليها ملك المغول.

ومما دفعنا كذلك تذكير المسلمين أن الأمة لا تعدم الرجال في أي زمان ومكان، ففي الوقت الذي شهدت فيه بلاد العالم الإسلام خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر حالة من التفكك والضياع، كانت بلاد الهند تعيش في رغد الإسلام وأمنه تحت حكم أورنك زيب عالمكير.

الذي حكم خمسين عامًا (١٠٦٨هـ - ١٦٥٧م / ١١١٨هـ - ١٧٠٧م)، رفع فيها راية الجهاد على الهندوس والصفويين، وأبطل شعائرهم، وأعلى شعائر الإسلام، وأصبحت دهلي في عهده حاضرة الدنيا كلها، كما وقف بجهاده وحميَّته الإسلامية حائط صد أمام أطماع البرتغاليين والإنجليز الاستعمارية.

١ـ أورانك زيب

عظيم جمع مفاخر العظماء ومآثرهم، حتى تفرّد بينهم بجميل الخصال وعظيم الصفات، فكان عالمًا زاهدًا، وحاكمًا عادلاً، ومجاهدًا صدوقًا، وأديبًا شاعرًا، وفقيهًا متعبدًا، وقائدًا مظفرًا، كما كان فنانًا خطاطًا.

هو أحد عباقرة الإسلام على مر العصور، حكم الهند كلها حوالي خمسين سنة، أقام فيها العدل ونشر الأمن، وقهر الطغاة الجبارين، وترك آثارًا على الأرض وآثارًا في الحكم وآثارا في العقول، ملأ الهند مساجد ومشافي ومارستانات، وملاجئ للعاجزين، ومدارس للمتعلمين، وسنَّ في أساليب الحكم سنن الخير، فنظم القضاء وأصلح قوانين الضرائب وترك للعلماء كتابا من أجل كتب الفقه الإسلامي. هو السلطان عالمكير[١] أورانك زيب[٢] ابن شاهجان بن جهانكير ابن الإمبراطور أكبر حفيد تيمور لنك.

نحن الآن في الهند في القارة التي حكمناها ألف سنة، في الدنيا التي كانت لنا وحدنا وكنا نحن سادتها، ولئن كانت لنا في أسبانيا أندلس فيها عشرون مليونا، فلقد كان لنا ها هنا أندلس أكبر فيها اليوم أربعمائة مليون[٣]، ولئن تركنا في الأندلس من بقايا شهدائنا ودماء أبطالنا، ولئن خلفنا فيها مسجد قرطبة والحمراء، فإن لنا في كل شبر من هذه القارة دما زكيا أرقناه، وحضارة قيمة وشيت جنباتها، وطرزت حواشيها بالعلم والعدل والمكرمات والبطولات، وإن لنا فيها آثارا تفوق بجمالها وجلالها الحمراء وحسبكم تاج محل أجمل بناء علا ظهرَ الأرض.[٤]

٢ـ نسبه وولادته

هو الإمام المجاهد العظيم، القائد المظفر، الغازي المنصور، أبو المظفر محي الدين محمد أورنك زيب عالمكير بن شاهجهان بن جهانكير ابن شاه أكبر بن أبي النصر محمد همايون، حفيد طاغية الهند الأكبر تيمور لنك. وأمه هي أرجمند بانو بنت آصف جاه، المعروفة باسم ممتاز محل، صاحبة مقبرة تاج محل. ولد ليلة الأحد (١٥ من ذي القعدة ١٠٢٨هـ / ٢٤ من أكتوبر ١٦١٩م)، بقرية دوحد في كجرات بالهند، في عهد جده جهانكير (أي آخذ الدنيا أو مالكها، حكم من ١٠١٤هـ/ ١٠٣٧هـ- ١٦٠٥م/ ١٦٢٧م).[٥]

٣ـ في بيت أبيه

نشأ أورنك زيب عالمكير في مهد العز والسلطة، وتنبَّل في أيام جده وأبيه، فأبوه هو سلطان الهند شاهجهان (ومعناه ملك الدنيا، حكم من ١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م- ١٠٦١هـ/ ١٦٥٧م) أحد أعظم سلاطين دولة المغول المسلمين في الهند، الذي أمر بهدم العديد من معابد الهندوس، لكنه اشتهر في العالم كله، بأنَّه هو الذي أمر ببناء واحد من أكثر الأبنية جمالاً في العالم، وهو تاج محل؛ تخليدا لزوجته (ممتاز محل)، التي ملكت عليه قلبه وحياته، حتى ماتت سنة ١٦٣١م، فرثاها بهذا البناء الخالد الذي يعد من عجائب الدنيا السبع، وقد لبث اثنان وعشرون ألفًا من العمال اثنين وعشرين عامًا مسخّرين في بناء التاج، وعلى الرغم من أن المرمر جاء إلى "شاه جهان" هدية من "مهراجا جايبور"، فقد كلَّف البناء وما حوله ما يساوي اليوم مائتين وثلاثين مليونًا من الريالات الأمريكية، وهو في ذلك العهد مبلغ ضخم من المال."[٦] وإن المرء ليأسف على هذا الكم الطائل من الأموال لبناء ضريح واحد لامرأة، وإن بلغ به الحب ما بلغ!!. فقد قضى السلطان شاهجهان آخر أيام حياته يستجلي ذكرياته مع حبيبته !!.

٤ـ في ساحة العلم والفقه

نشأ أورنكزيب نشأةً علمية إسلامية متدينة، فهو سليل بيت علم وأدب ودين وجمال، وقد تكفَّل بتربيته والاعتناء به كبار علماء عصره، ومنهم الشيخ محمد معصوم ابن الشيخ أحمد السرهندي، ولم يكن أورنكزيب كبير إخوته، ولا كان ولي العهد، ولم يكن يؤمل له أن يلي الملك، لكن الشيخ وضع في تربيته جهده وبذل له رعايته، فنشأ نشأة طالب في مدرسة دينية داخلية بين المشايخ والمدرسين، فقرأ القرآن وجوَّده والفقه الحنفي وبرع فيه، والخط وأتقنه، وألمَّ بعلوم عصره، وربي مع ذلك على الفروسية ودروب القتال، ولما مات جهانكير وولي ابنه شاه جهان ولي كل من أبنائه الأربعة قطرًا من أقطار الهند، وكان نصيب أورانك زيب ولاية الدكن، فباشرها أحسن مباشرة.

وقد قرأ أورانجزيب عالمكير العلم على مولانا عبد اللطيف السلطانبوري ومولانا محمد هاشم الكيلاني والشيخ محي الدين بن عبد الله البهاري وعلى غيرهم من الأساتذة، وأخذ خط النسخ عن الحاج القاسم، وعن السيد علي بن محمد مقيم الماهرين في الخط حتى كتب خط المنسوب، وصار مضرب المثل في جودة الخط، وبرز في كثير من العلوم والفنون.[٧]

كما ظهرت عليه علامات النبوغ والقوة والفروسية والشجاعة منذ نعومة أظفاره، ففي نزهة الخواطر "أن والده شاه جهان كان يومًا يتفرج في البرج المشرف على نهر جمن على مصارعة الأفيال، التي كانت في عرصة القلعة فيما بينها وبين النهر، والأفواج كانت قائمة بين ظهرانها وخلق كثير يتفرجون عليها في تلك العرصة، وكان عالمكير أيضًا في ذلك الزحام وهو يومئذ في الرابع عشر من سنه، وكان على فرس جرى العادة فإذا هي بفيلة قد ثارت وقصدت الأفواج، ففر الناس كلهم من بين يديها إلا عالمكير، فإنه ثبت على مقامه فتوجهت إليه الفيلة ولفت فرسه بخرطومها، وصرع عالمكير من صهوة الفرس، ثم قام وسل السيف عليها ثم جاء الناس ودفعوها بالضرب والطعن وإيقاد النار وغير ذلك، وهذه مفخرة عظيمة في الثبات والعزيمة لا تجدها لغيره من أبناء الملوك في تلك السن."[٨] فقد جمع الطفل الصغير ما يجمعه عظماء الملوك وأكابر الخلفاء في سن صغيرة.

٥ـ أورنك زيب والصراع على السلطة

ظل السلطان شاه جهان مفتونا بفقيدته وجنَّ جنونه بتاج محل الذي يجمع رفات حبيبته، وقضى السنوات الطويلة والأموال الهائلة في بناء ضريحها الفاخر، وانصرف بذلك عن تدبير أمور مملكته الكبيرة، فاضطربت أحوال البلاد والعباد. وكان أورانك زيب عالمكير الأخ الرابع بين إخوته، وهم دارا شكوه وشجاع ومراد يخش (أي مراد الله)، وكان شجاع قد تولي إمارة البنغال، وتولى مراد بخش إمارة الكجرات، إضافة إلى تولى أورانك زيب إمارة الدكن.

وكان شاهجهان قد عزم على بناء قصر مُواجِهٍ لتاج محل ليكون ضريحًا له شخصيًّا ومقابلاً لضريح زوجته، ولكن مع وجود فارق بينهما وهو أن ضريح تاج محل من الرخام الأبيض، أما ضريحه هو فسيكون باللون الأسود، بحيث يربط بينهما جسر كبير، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، ولم يتحقق هذا الحلم بسبب انقلاب الابن الأكبر دارا شكوه عليه واعتقاله سنة (١٠٦١ هـ/ ١٦٥٧م)، فبسط يده على البلاد وصار هو المرجع والسلطان.

فلم ترض نفوس إخوته بذلك فنهض كلٌ من إمارته ناحية أخيهم دارا شكوه، كالتالي: شجاع من البنغال، ومراد بخش من الكجرات، وأورانك زيب من الدكن، ودارت معارك شديدة بينهم، انتهت بانتصار أورانك زيب على إخوته، ثم قتلهم –رغما عنه لكرهه الدماء وإثاره الصلح بين إخوته- لأمور صدرت منهم، وأفتى العلماء أنهما استوجبوا القتل، وحبس والده في قلعة أكبر آباد، وهيأ له ما يشتهيه من الطعام والشراب، وأهل الخدمة من الجواري والغلمان، وظل في محبسه ثماني سنوات حتى وفاته ١٠٧٦هـ- ١٦٦٦م، وكان يعزي شاه جهان وقوفه أمام مرآة وضعها له أحد المهندسين في أحد الأعمدة تعكس صورة الضريح الذي يبعد عدة أميال عن سجنه، فيرى الضريح وكأنه أمامه. وبذلك جلس أورنجزيب على سرير الملك سنة (١٠٦٨هـ/١٦٥٧م)، وكان وقتها عنده من العمر أربعين سنة.[٩]

وبذلك صفا الجو لأورانكزيب، وكأنما ساقته العناية الإلهية ليكون حاكما فذا، وليصبح على مر التاريخ مثالا طيبا للحاكم المسلم، الذي يعتز المسلمون به وبسيرته الصالحة، وذلك على الرغم مما صاحب اعتلاءه العرش من سفك للدماء.[١٠]

٦ـ أورانك زيب أعظم ملوك المغول

قال أبو الفضل المرادي الحسيني صاحب سلك الدرر واصفا حال السلطان المجاهد أورانك زيب: "سلطان الهند في عصرنا، وأمير المؤمنين وإمامهم، وركن المسلمين ونظامهم، المجاهد في سبيل الله، العالم العلامة الصوفي العارف بالله، الملك القائم بنصرة الدين، الذي أباد الكفار في أرضه، وقهرهم وهدم كنائسهم وأضعف شركهم، وأيّد الإسلام، وأعلى في الهند مناره، وجعل كلمة الله هي العُليا".

يكاد يجمع المؤرخون أن أورانك زيب أعظم ملوك المغول المسلمين على الإطلاق، فقد بلغت الدولة الإسلامية في عهده الذروة التي لم تبلغها قبله أو بعده، حكم أورانك زيب حوالي خمسين عامًا، لم تَخْلُ من المتاعب والحروب، بل كانت سلسلة متتابعة من الحروب هنا وهناك، وكثيرًا ما كان أورنجزيب على رأس جيشه، يباشِر تأديب أعدائه بنفسه، ويضمُّ ممالكَ جديدةً إلى رُقعة مملكته، حتى إنه لم يَعرِف طعم الراحة والإقامة الهنيئة في عاصمة مُلْكِه.

وامتدَّت الدولة في عهده من سفوح الهمالايا في الشمال إلى شواطئ البحر في الجنوب، ولكن حدثت في عهده مجموعة من الثورات والحروب، مثل ثورة الراجبوت فقد نقضوا فيها عهدهم، وامتنعوا عن دفع الجزية، فأرسل لهم الملك أورانك زيب ابنه محمد أكبر، فقضى على ثورتهم سنة ١٠٩٠هـ، كما تمرَّد المراهتا على أورانك زيب، وهم قوم لهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصَّة، حيث يسكنون شمالاً من بومباي، وقد قضى عليهم, لأنَّ أميرهم "سيفاجي" كان يتحيَّن فُرَص ضعف الدولة المغولية أو انشغالها بحربها مع الدُّول أو الثورات الأخرى، ليُعْلِنَ العصيان على الدولة، فصَكَّ النقود باسمه، بل ويهاجم قوافل الحجاج في مدينة "سورت"، وكان الحُجَّاج يُبحِرُون منها للحجاز قبل ميناء بومباي، وظلَّ ثائرًا محاربًا للمغول حتى طلب العفو والصفح، فعفا عنه محمد أكبر، وأقطعه بعض الأراضي في برار, وظلَّ أورنك زيب معنيًّا بالمراهتا في جسم الدولة حتى انتهى من أمرهم تمامًا سنة (١١١٦هـ/ ١٧٠٥م).

أما الشيعة الصفويون فقد استطاع أورنجزيب "رحمه الله" أن يستولي على مملكتهم في كولكندة، وخاصة بعد أن تعاونوا مع الثائرين ضد أورنك زيب بالمال والسلاح، ولم يوفوا بتعهداتهم بعدم سب الصحابة –رضي الله عنهم- ودفع الجزية، وكان ذلك سنة (١٠٩٨هـ/ ١٦٨٧م).

لقد شهدت إمبراطورية المغول الإسلامية في الهند في عهد أورانك زيب أقصى امتداد لها وذلك بفضل الجهود العسكرية التي بذلها السلطان أورانجزيب "رحمه الله"، حيث لم يبق إقليم من أقاليم الهند إلا خضع تحت سيطرته، بل اتسع سلطانه ليشمل الهند وآسام وأراكان في بورما، وكذلك أفغانستان، وكانت تلك هي الذروة التي وصل إليها ملك المغول.

وهكذا رأينا كيف قضى هذا الإمبراطور حياته محاربا، يتخذ من ميادين القتال سكنه الدائم، وكأنما خلق هو لحياة النضال، لا لحياة القصور، وما فيها من متاع، لم يمنعه من ذلك عمره الذي بلغ التسعين، ومات وهو في ميادين القتال بعيدًا عن عاصمة ملكه دلهي. لقد كان أعجوبة من أعاجيب الزمان في مختلف نواحيه.[١١]

٧ـ سياسة أورانك زيب في ملكه

عندما جلس أورانك زيب على سرير الملك والسلطنة بدأ يسير على منهاج النبوة وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، فرفع راية الجهاد على الهندوس والصفويين، وأبطل شعائرهم، وأعلى شعائر الإسلام.

فقد كان ينظر في شئون الرعية من أدنى بلاده إلى أقصاها بمثل عين العقاب، كما كان يبطش بالمفسدين بمثل كف الأسد، فأسكن كل نأمة فساد، وقضى على كل بادرة اضطراب، ثم أخد بالإصلاح فأزال ما كان باقيا من الزندقة التي جاء بها أكبر أبو جده، وكانت الضرائب الظالمة ترهق الناس ولا ينال أمراء المجوس لفح نارها، فأبطل منها ثمانين نوعا، وسن للضرائب سنة عادلة وأوجبها على

الجميع، فكان هو أول من أخذها من هؤلاء الأمراء، وأصلح الطرق القديمة، وشق طرقًا جديدة، ويكفي لتعرفوا طول الطرق في الهند أن تعرفوا أن طريقًا واحدًا مما كان فتحه شيرشاه السوري كان يمشي فيه المسافر ثلاثة أشهر، وكانت تحفه الأشجار من الجانبين على طوله، وتتعاقب فيه المساجد والخانات.

وبنى المساجد في أقطار الهند، وأقام لها الأئمة والمدرسين، وأسس دورًا للعجزة، ومارستانات للمجانين، ومستشفيات للمرضى. وأقام العدل للناس جميعًا فلا يكبر أحد أن ينفذ فيه حكم القضاء، وكان أول مَنْ جعل للقضاء قانونًا، وكان يحكم في القضاء بنفسه لا حكما كيفيا بل حكما بالمذهب الحنفي معللا ومدللا، وكان للإمبراطور امتيازات فألغاها، وجعل نفسه تابعا للمحاكم العادية، ولمن له عليه حق أن يقاضيه به أمام القاضي مع السوقة والسواد من الناس.[١٢]

وفي سنة (١٠٨٢هـ/ ١٦٧٢م) قام أورانك زيب بفرض الجزية على الهندوس، تنفيذًا لتعاليم الإسلام، بعد أن ألغاها أجداده لمدة تزيد عن مائة عام كاملة، وفي المقابل ألغى أورنجزيب بعض الضرائب التي لم تفرضها الشريعة، وأعفى الهندوس وغيرهم منها. ولم يكن هدفه من ذلك الإذلال لبعض رعاياه، أو تعصبا أو أخذ مال وكفى، وإنما كان الغرض أن يصبغ دولته بالصبغة الإسلامية، التي تحترم حقوق الآخرين وحرياتهم في حدود القانون. فحين أشير عليه بفصل الموظفين الذين لا يدينون بدين الدولة من المناصب العامة، كتب يقول: "إن الدين لا علاقة له بالمسائل العلمانية، وهذه المسائل التي نحن بصددها لا مجال فيها للتعصب".[١٣]

وما زال المسلمون ينظرون إلى أروانك زيب نظرتهم إلى أولياء الله الصالحين، ولم تستقر هذه الفكرة في أهان المسلمين على مر القرون عبثا، فإن ما عرف عنه من تدينه وورعه وزهده وتمسكه بتعاليم الشريعة يرتفع به إلى هذا المقام بلا شك.

٨ـ أورانك زيب .. مآثره وخلاله

ذكر عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي صاحب نزهة الخواطر جملاً من مآثر أورانك زيب عالمكير، قلَّما تتوفر إلا في الصالحين من الملوك والعظماء من الخلفاء، ومنها باختصار:

- كان عالمكير عالمًا دينًا تقيًا متورعًا متصلبًا في المذهب، يتدين بالمذهب الحنفي لا يتجاوز عنه في قول ولا فعل.
- وكان يعمل بالعزيمة، وكان يصلي الصلوات المفروضة في أوائل أوقاتها بالجماعة في المسجد مهما أمكن، ويقيم السنن والنوافل كلها، ويصلي صلاة الجمعة في الجامع الكبير، ولو كان غائبًا عن البلدة لأمر من الأمور يأتيها يوم الخميس ويصلي صلاة الجمعة ثم يذهب حيث شاء.
- وكان يصوم في رمضان في شدة الحر، ويحيى الليل بالتراويح، ويعتكف في العشرة الأخيرة من رمضان في المسجد، وكان يصوم يوم الاثنين والخميس والجمعة في كل أسبوع من أسابيع السنة، ويصوم في أيام ورد عن النبي –صلى الله عليه وسلم- أنه كان يصوم فيها.
- وكان يخرج الزكاة من أمواله قبل أن يجلس على سرير الملك وبعده، مما خص لنفسه من عدة قرى وبعض معادن الملح للمصارف الخاصة من نقير وقطمير.
- وكان يريد أن يرحل إلى الحرمين الشريفين للحج والزيارة في أيام والده فلم يرض بفراقه، وبعد ذلك لم تمهله المصالح الملكية، ولكنه كان يرسل الناس إلى الحرمين الشريفين للحج والزيارة، ويبذل عليهم العطايا الجزيلة، ويبعث إليهما أموالاً طائلة لهل الحوائج في أيام الحج بعد سنة أو سنتين.
- ويوظف الذاكرين والذاكرات ويجعل لهم الأرزاق السنية، ويداوم على الطهارة بالوضوء، ويحافظ

على الأذكار والأدعية المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم في غالب أوقاته، ويحيى الليالي المتبركة بالصلاة والصدقة وصحبة العلماء والمشايخ في المسجد.

- وكان يحترز عن كل سوء ومكروه منذ نعومة أظفاره، لم يشرب الخمر قط، ولم يقارب امرأة لا تحل له، وكان لا يستمع الغناء بالمزامير منذ جلس على سرير الملك، مع أنه كان ماهرًا بالإيقاع والنغم، وما كان أن يلبس الملبوسات غير المشروعة وما كان أن يأكل في الظروف الذهبية والفضية، وأمر أن يصاغ الجواهر الثمينة في الحجر اليشب مقام الذهب.
- ونهى الأمراء أن يلبسوا الغير المشروع، وكان يمنعهم أن يتذاكروا بين يديه بكذب وغيبة وقول الزور، وأمرهم أن يعبروا عن الأمور المستكرهة إن وقع لهم حاجة إلى ذلك بكناية واستعارة.
- وكان موزعًا لأوقاته فوقت للعبادة ووقت للمذاكرة ووقت لمصالح العساكر ووقت للشكاة ووقت لقراءة الكتب والأخبار الواردة عليه كل يوم وليلة من مملكته لا يخلط شيئًا بشيء.
- وكان يجلس للمذاكرة في الكتب الدينية كالإحياء والكيمياء والفتاوي الهندية وغيرها في كل أسبوع ثلاثة أيام على السيد محمد الحسيني القنوجي والعلامة محمد شفيع اليزدي ونظام الدين البرهانبوري وغيرهم من العلماء.
- من مآثره الجميلة أنه حفظ القرآن الكريم بعد جلوسه على سرير الملك، فأرخ بعض العلماء لبدء

حفظه من قوله تعالى: {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى} [الأعلى: ٦]، ولتمامه من قوله {لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} [البروج: ٢٢].

- ومنها أنه كانت له معرفة بالحديث، له كتاب الأربعين جمع فيه أربعين حديثًا من قول النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يتولى المملكة، وله كتاب آخر جمع فيه أربعين حديثًا بعد الولاية وترجمهما بالفارسية وعلق عليهما الفوائد النفيسة.
- ومنها أنه كانت له مهارة تامة بالفقه ويضرب به المثل في استحضار المسائل الجرئية، وقد صنف العلماء بأمره الفتاوي الهندية أو الفتاوى العالمكيرية، في ستة مجلدات كبار فاشتهرت في الأقطار الحجازية والمصرية والشامية والرومية، وعمّ النفع بها وصارت مرجعًا للمفتين، وأنفق على جمعها مائتي ألف من النقود.

- ومنها أنه كان بارعًا في الخط يكتب النسخ والنستعليق وشكسته بغاية الجودة والحلاوة، كتب مصحفًا بيده قبل جلوسه على السرير، وبعثه إلى مكة المباركة، وبعد جلوسه مصحفًا آخر وأنفق على التذهيب والتجليد سبعة آلاف روبية ثم بعثها إلى المدينة المنورة.
- ومنها أنه كان ماهرًا بالإيقاع والنغم، ولكنه كان يحترز من استماع الغناء تورعًا. وأما الشعر فإنه كان مقتدرًا عليه، ولكنه كان لا يعتني به ويمنع الناس أن يضيعوا أوقاتهم في الشعر لقوله تعالى: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ} [الشعراء: ٢٢٤- ٢٢٥].
- ومن ذلك أنه بذل الأموال الطائلة في بناء المساجد، وبنى مساجد كثيرة في أرض الهند وعمَّر القديمة منها، وجعل الأرزاق للأئمة والمؤذنين والرواتب للمساجد من بسط وسرج وغير ذلك، من هذه المساجد مسجد "بادشاهي" في لاهور بباكستان الآن.
- ومن ذلك أنه كان يرسل العطايا الجميلة إلى أهل الحرمين الشريفين - زادهما الله شرفًا - بعد سنة أو سنتين. ويشترطها بأن تعطى لأهل الحاجة غير الأغنياء ولذلك كان الناس ينسبونه إلى البخل وحاشاه عن ذلك.
- ومن ذلك أنه وظف خلقًا كثيرًا من العلماء والمشايخ اشتغلوا بالعلم والعبادة منقطعين فارغي القلوب عن كل هم، ولم يفرق فيها بين أهل الإسلام وكفار الهند، توجد مناشيره عند أحبار الهنادك في بنارس وفي غير تلك البلدة حتى اليوم.
- - ومن مآثره أنه كان مجبولاً على العدل والإحسان، وفصل القضاء على وفق الشريعة المطهرة، ولذلك أمر العلماء أن يدونوا المسائل والأقضية من كل باب من أبواب الفقه، فدونوها وصنفوا الفتاوي العالمكيرية في ستة مجلدات كبار، ثم إنه أمر القضاة أن يقضوا بها.[١٤]
- وقد وفّق أورانك زيب عالمكير –رحمه الله- إلى أمرين لم يسبقه إليهما أحد من ملوك المسلمين: الأول: أنّه لم يكن يعطي عالمًا عطية أو راتبًا إلا طالبه بعمل، بتأليف أو بتدريس، لئلا يأخذ المال ويتكاسل، فيكون قد جمع بين السيئتين، أخذ المال بلا حق وكتمان العلم !! الثاني: أنّه أول مَنْ عمل على تدوين الأحكام الشرعية في كتاب واحد، يُتخذ قانونا، فوضعت له وبأمره وبإشرافه وتحت ناظره كتاب "الفتاوى الهندية – العالمكيرية" على المذهب الحنفي.[١٥]

٩ـ وفاة السلطان أورانك زيب عالمكير

توفي السلطان المظفر أورانك زيب عالمكير في أحمد نكر في الجنوب بعيدا عن عاصمته بألف وخمسمائة كيلو، وهو يرفع راية الجهاد والدين، وذلك في ٢٨ ذي القعدة سنة (١١١٨هـ/ ٢٠ فبراير ١٧٠٧م)، بعد أن حكم ٥٠ سنة، وعمره نحو تسعين سنة، ودفن في أورنك أباد، ولا زال قبره هناك.

وبوفاة السلطان أورانك زيب عالمكير انتهت عظمة دولة المسلمين في الهند، فجاء من بعده حكاما ضعافًا، يتحكم الإنجليز في توليتهم وعزلهم، وظل الأمر كذلك حتى انتهت تماما بسقوط آخر سلطان مسلم في الهند "بهادور شاه الثاني" سنة (١٢٧٤هـ/ ١٨٥٧م)، وفعل الإنجليز ما لا يمكن لعقل أن يتصوره ولا لضمير أن يتحمله، حتى تبرأ عقلاء الإنجليز مما أفعال أبناء قومهم الوحشية، حتى أنهم قاموا بذبح أبناء بهادور شاه الثلاثة أمام عينيه، وعملت له وجبات من لحومهم، وأجبروه أن يأكل منها. وبعدها لم تقم للإسلام قائمة منذ ذلك الزمن في تلك البلاد الشاسعة. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.[١٦]

ها هي سيرة أورانك زيب عالمكير، الإمبراطور الذي لم تشغله دنياه وحروبه المتتالية عن دينه وآخرته، فكان حاكمًا لم تشهد الهند مثله في اتساع ملكه وصلاح خلقه، وحسن سيرته وسريرته، فكان حقا بقية الخلفاء الراشدين.

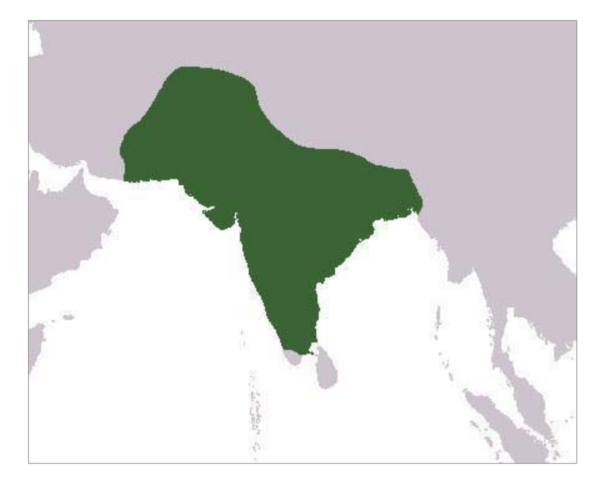
خاتمة

لا أزعم أنني أوفيت السلطان أورانك زيب عالمكير حقَّه في هذه السطور، فسيرته رحمه الله تحتاج إلى مجلدات وأبحاث لبيان أوجه العظمة في سياسته وجهاده وحكمه الرشيد، وقد علمت مؤخرًا أن هناك رسالة ماجستير تُعدُّ الآن حول أورانك زيب عالمكير بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة، فنسأل لصاحبها الهنديّ التوفيق.

غير أنه مما يجب أن نتوقف عنده بعدُ، أن الأمة لم تعدم في تاريخها من يجدد لها أمر دينها من الحكام الصالحين المصلحين، ولعل أورانك زيب عالمكير آخر حكام المسلمين العظام إصلاحًا وتجديدًا - فيما يبدو- في تاريخ الأمة الحديث، من خلال تمسكه البالغ بشعائر الإسلام وسننه، وقد شهد ثقاة المؤرخين، وفيهم من الهنادكة بحزمه وشجاعته وعلو همته وأصالة رأيه، وقالوا بأن الهند لم تعرف منذ أيام سكندرلودهي سميًّا له في حب العدل والسهر على مصالح الناس.

ولو قدّر لهذا البطل أن يعيش أو يخلفه مَن سار على دربه الرشيد لكان لأمر الهند المسلم شأنٌ عظيم، ولربما حلَّت دهلي محل الأستانة في خلافة المسلمين، غير أن هذا الحلم لم يتم بعد، إذ خلفه حكام ضعفاء متنازعون، عجزوا عن إدارة دفة الحكم في بلادهم، مما مهَّد الأرض لأولئك المستعمرون الأوروبيون أن يضعوا أيديهم -بالحيلة والمكر والخديعة والوقيعة- على شبه القارة الهندية كلها.

الملاحق:



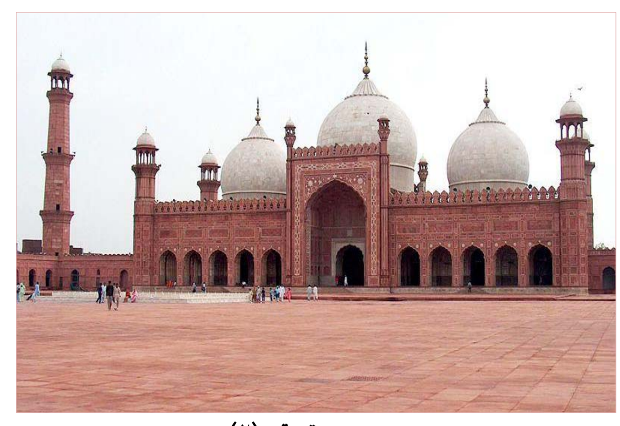
خريطة رقم (١)

دولة الهند في عهد أورانك زيب



صورة رقم (١)

أورانك زيب يقرأ القرآن



صورة رقم (٢)

مسجد "بادشاهى" في لاهور بباكستان الآن بناه أورانك زيب

الهوامِش:

[١] **عالمكير أو عالمجير**: معناها (جامع زمام الدنيا أو العالم، أو آخذ الدنيا وسيد العالم).

[٢] **أورانك زيب أو أورانج زيب**: معناها (زينة العرش)، فأورانج معناها: عرش، وزيب، معناها: زينة.

[٣] هذا تعداد المسلمين في عهد أورانك زيب في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، أما الآن فعدد المسلمين في الهند حوالي ١٨٠ مليون نسمة، أي بنسبة ١٤.٥% من عدد السكان الذي يزيد عن مليار نسمة. انظر: جريدة الشرق الأوسط، "**لماذا يتخلف المسلمون في الهند؟**"/ العدد ١٠١٣٩ بتاريخ أول سبتمبر ٢٠٠٦.

[٤] علي الطنطاوي: **رجال من التاريخ**، دار البشير- دار المنارة- جدة، ط١ بمصر ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، جـ٢/ ١٦.

[٥] محمد خليل المرادي الحسيني: **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**، الناشر: دار البشائر الإسلامية، دار ابن حزم، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨م، ج٤/ ١١٣.- عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي: **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ(نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)**، دار النشر: دار ابن حزم - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩م، جـ٦/ ٧٣٧-٧٣٨.

[٦] ول ديورانت: **قصة الحضارة**، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمود وآخرين، الناشر: دار الجيل، بيروت - لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، عام النشر: ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨م، جـ٣/ ٣٩٤.

[٧] عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي: **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام**، جـ٦/ ٧٣٨.- علي الطنطاوي: **رجال من التاريخ**، جـ٢/ ٢١.

[٨] عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي: **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام** المسمى بـ**(نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)**، جـ٦/ ٧٤٠-٧٤١.

[٩] محمد خليل المرادي الحسيني: **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**، جـ٤/ ١١٤.- عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي: **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام**، جـ٦/ ٧٣٨.

[١٠] عبد المنعم النمر: **تاريخ الإسلام في الهند**، دار العهد الجديد للطباعة، الطبعة الأولى ١٩٥٩م، ص٢٦٧.

[١١] عبد المنعم النمر: **تاريخ الإسلام في الهند**، ص٢٦٩- ٢٨٠، بتصرف.

[١٢] علي الطنطاوي: **رجال من التاريخ**، جـ٢/ ٢٣- ٢٤.

[١٣] عبد المنعم النمر: **تاريخ الإسلام في الهند**، ص٢٨٣. بتصرف.

[١٤] عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي: **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام** المسمى بـ**(نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)**، جـ٦/ ٧٣٨-٧٤٢. بتصرف.

[١٥] علي الطنطاوي: **رجال من التاريخ**، جـ٢/ ٢٤- ٢٥.

[١٦] محمد خليل المرادي الحسيني: **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**، جـ٤/ ١١٤.-عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي: **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام**، جـ٦/ ٧٣٨. - عبد المنعم النمر: **تاريخ الإسلام في الهند**، ص ٢٨٠، ٤٤٧- ٤٥٣.